



حَيَاتُ الْأَوْلَادِ وَالْزُيُودِ الْأَخِيرِ

تأليف

توفيق بن خلف الرّفاعي

خِيَارُ الْأَوْلِيَاءِ وَلِزَوَّالِ الْأَخْيَرِ
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ

بقلم:

نوفس بن خلف بن عبد الله الرفاعي

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَنْ عُمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (١) .

وَفِي رِوَايَةٍ : «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (٢) .

وَفِي رِوَايَةٍ : «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (٣) .

(١) متفق عليه .

(٢) رواه ابن ماجه ، وصححه الألباني .

(٣) رواه البخاري .

المقدمة

أليست هذه الأمة خير الأمم ... وأصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة؟!!

ومع هذا فإن النبي ﷺ يضيف لخيرية هؤلاء خيرية لمن أراد أن يكون خير الأختيار، فيخاطبهم قائلاً: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

فما أحوجنا أن نتناوش هذا المقام ... ونعرج قبل فوات الأوان ... وذهاب زمن الإمكان، ونحن

الآخرين وقد أصبح السابقون فينا قليلاً ، كما قال الله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ .

وللقارئ أن يتخيّل أي غبارٍ للهَمم قد ثار في ميدان السباق إلى الله بين الصحابة رضي الله عنهم وهم يستمعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول لهم : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ، ويكفي ذلك إثباتاً أن تعرف من راوي الحديث؟

إنه جامع القرآن الذي تقرأه اليوم : عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهو الذي كان يعيش مع القرآن لدرجة أنه كان يقرأه كاملاً في ركعة واحدة كما ثبت ذلك عنه .



من درر قوله ﷺ :

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»

* المعنى الأول: سَبَقُ السَّابِقِينَ :

منزلة الخيرية في خير أمة كمنزلة سابق السابقين في السابقين، ومنزلة الأول على الأوائل، وكان النبي ﷺ يقول: «خيركم يا خير أمة»، فالابتداء بتعلم القرآن ابتداء في شق طريق الخيرية في خير أمة، وعليه فإن مزيد التعلم من آيات القرآن مزيد ارتقاء في هذه الخيرية حتى إتمام قراءته، ثم إتمام حفظه، ثم معرفة

علومه وقراءاته، فمن تعلم قراءةً وأتقنها غير مَنْ قرأه
بغير قراءةٍ وإن كان متقناً، ومَنْ قرأه بقراءتين كان أكثر
تعلماً ممن قرأه بقراءةٍ، ومَنْ تعلَّم ثلاث قراءاتٍ كان
أكثر تعلماً ممن تعلم قراءتين، والأصل أن كل مَنْ
تعلم أكثر من علوم القرآن كان خيراً إن استويا في كل
شيءٍ، وتزداد منزلته بزيادة عمله، كما أن مَنْ انتقل من
مرحلة التَّعلم إلى مرحلة تعليم الآخرين خيراً مِمَّن
توقف عند التعلم دون إعطاء الآخرين من علمه،
وكلما أكثر من تعليم العلوم القرآنية كان خيراً، وكلما
علَّم أكبر عدد من الناس القرآن كان خيراً. . . وهكذا.

فالخيرية مَنْوطةٌ بهذا القرآن وأهله، ومزيد الخيرية بين أهل القرآن أنفسهم عائد لمزيد العلم بهذا القرآن وعلومه ومزيد العمل به، والدعوة إليه، والجهاد به، وكلما كبر الجهاد به كبر الفضل، والمقام الأول والأعلى محسوم لرسول الله ﷺ الذي قال الله له: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾... وكذا هو الأول في خُلُق القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها: « كان خلقه القرآن»^(١).. وهو الأول في تعليم الناس القرآن بغير شك.. كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ

(١) رواه أحمد في مسنده، وصححه الألباني.

عَلَى مَكَّةٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴿١٠﴾ ، وقال عنه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ ، وقال له: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ .

وهكذا في كل شأن القرآن، وهل رسالته ﷺ إلا القرآن؟! ومن ثم فالناس له تبع قرباً منه ﷺ وبعداً عنه، وإن شئت قلت: قرباً من القرآن وبعداً عن القرآن، أي قرباً من الله وبعداً عن الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فإذا جعل بين هؤلاء وبين النبي ﷺ حجاباً مستوراً كان أولى أن

يجعل بين النبي ﷺ وبين قارئ القرآن سبباً واصلاً،
وطريقاً مُتصلاً، وقرباً وتلازماً، والله تعالى يقول:
﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي
وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠].



* المعنى الثاني : مدح ودعوة :

ذُكر النبي ﷺ هذه المنزلة لهذا الصنف من هذه الأمة ليس هو مدح مجرد أو مدح مغلق، إنما هو مدح مفتوح لمن أراد الالتحاق، وهو دعوة عظيمة لكل مَنْ بلغته هذه الرسالة من رسول الله ﷺ : أن قم وتعلم القرآن وعلمه، فكونه ﷺ يربط الخيرية بأمر التعلم والتعليم يقتضي إمكانية تعلم القرآن وسهولته؛ لأن الشرع لا يأمر بما هو مستحيل ولا شاذ، فهو أمرٌ مُيسرٌ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ

إنها دعوة لكل الأمة للتنافس في هذا المضمار،
وليس مضمار التنافس مقتصراً - كما يتصوره الكثير -
على الدعوة الشخصية، بل هو:

دعوة للأسرة المسلمة أن تكون أسرة قرآنية لتكون
خير الأسر.

دعوة للمساجد في التنافس.

دعوة للمناطق والعشائر والقرى والبلاد والأمم من
بعد أمها ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

إنها دعوة ينبغي أن تحولها الأسماع إلى صياغة

مؤسسية في مجال الخيرية .

إنها دعوة لولادة أمر المسلمين بسباق الخيرية بينهم ،
فخير الولاة والأمرء يُحدّد من خلال تعلّم القرآن ،
وتشريع تعليمه ، وتعميم تشريعه والعمل به أفرادًا
وقضاءً ومؤسسات ، فلا ينبغي أن يضيق الفهم ويحصر
على الفهم الفردي .

فبالقرآن تتفاضل . . .



* المعنى الثالث: السعي لارتقاء المقامين:

يا أهل القرآن ما منكم من أحدٍ إلا مرَّ بهاتين
المرحلتين، فمن كان منكم اليوم معلماً فقد كان متعلماً،
فالحير يراوح بينكم ما دتم في هذا الطريق العظيم . . .

فهل ترون هذا الحديث إلا رسالة لكم أن اثبتوا على
خيريتكم، وزيدوا منها، وارسخوا فيها . . .؟!!

أليس في هذا الإخبار دعوة لكل مَنْ بدأ بطريق تعلم
القرآن أن زِدْ حتى تصبح معلماً للقرآن لتتبوا منزلة
الخيرية العليا بعدما عشت المقام الأول؟

* المعنى الرابع: صبغة القرآن.

ليس صعباً أن نعرف العلة في خيرية أهل القرآن في هذه الأمة.

أليس صفات الشيء تنطبع على صاحبه؟

أليس من صفات القرآن أنه أحسن الحديث، وأصدق الحديث، وأنه خير الأمور... كما جاءت بذلك النصوص...

ألا يعني هذا أن صاحبه لا بد أن يكون كذلك؟!!

هذا أمر، والأمر الآخر هو أن القرآن باعث الحياة

كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اُسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ
وَلِلرَّسُولِ اِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاَعْلَمُوا اَنَّ اللّٰهَ يَحْوُلُ
بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهٖ وَاَنَّهُۥٓ اِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

إذن... فلا بد أن تخترق كلماته حياة الأحياء، بل
تصنعهم وتصبغهم: ﴿صَبَّغَةَ اللّٰهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ
صَبَّغَةً وَّنَحْنُ لَهُۥٓ عٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وَمَنْ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الصَّبْغَةِ مِمَّنْ جَمَعَ بَيْنَ «تَعَلَّمَهُ»
و«عَلَّمَهُ»؟!!

هذه هي طبيعة القرآن العظيم فإن من تعلّمه تشرّبه

اعتقاداً، وفاض عليه خلقاً، وفاض على من حَوَّلَهُ علماً
وقدوة... .

هذه الطبيعة القرآنية لازمٌ من لوازم حياة مَنْ أَخَذَ
القرآن... لا تنفك عنه أبداً.

ولا ينبغي أن يقدر بها وجودُ بعضِ مَنْ حفظَ القرآنَ
للتكسُّبِ به، أو لم يعطه حقَّه، أو لم يَفِ بعهدِه،
فهؤلاءُ إساءتهم مقصورة عليهم والقرآن حجة عليهم،
وهو شاهد عليهم بآياته، وسائقهم إلى النار، ويكفيهم
مثل السَّوء المضرُوب في القرآن: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي

ءَاتَيْنَهُ ءَايَاتِنَا فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى
الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَشَئِلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ
يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِءَايَاتِنَا فَأَقْصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَأَنفُسِهِمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].



التنادي يا أهل القرآن

هُتَافٌ خَفِيٌّ أَنْ «يا أهل القرآن» عودوا للقرآن،
وَأَعِيدُوا النَّاسَ إِلَى الْقُرْآنِ، وَجَدِّدُوا الْحَيَاةَ بِالْقُرْآنِ . . .

* النداء الأول:

يا أهل القرآن: فكما أن العلم بالقرآن مقامات فإن العمل به مقامات .

فلا ينبغي أن يتوقف صاحب القرآن عند حد العلم، بل لا ينبغي أن يتوقف عمله عند حد، فالعمل عائد للمعتقد، والمعتقد يزداد بزيادة الاستماع للقرآن وقراءته كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا۟ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ

لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٢٤﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿التوبة: ١٢٤، ١٢٥﴾ . وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

كَرِيمٌ ﴿[الأنفال: ١ - ٤] .

يقيناً أنكم تدركون أن القرآن هو سبب خيرية هذه الأمة، إلا أنه ربما يخفى على الكثيرين أن كل العلاج في كلمة واحدة هي «علمه»، ذلك أنها المرحلة الثانية والمشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ففي الأولى «يتعلم»، وفي الثانية «يُعلم»، يغرف للخلق من هذا القرآن الذي اغترف منه.



* النداء الثاني :

يا أهل القرآن: لو تأملتم جيداً قوله ﷺ: «وعلمه»
لعرفتم أنه سبب خيرية هذه الأمة على الأمم كلها!

فإن في هذه الكلمة تعليم كل خير، وكلُّ خيرٍ في
هذا القرآن . . . وهل كل هذا الخير الذي كان ويكون
وسيكون إلا جاء بعد «اقرأ»؟ .

فكم في «علمه» من خير؟ .

فتعليم تحقيق خُلُق القرآن من خلال «علمه» .

وتعليم إقامة عقيدة القرآن من خلال «علمه» .

وتعليمُ إقامةِ شرعةِ القرآن من خلال «عَلَّمه».

ونشر دعوته من خلال «عَلَّمه».

والجهاد في سبيل الله من خلال «عَلَّمه».

والوسطية من خلال «عَلَّمه»، وهكذا وهكذا..

فكل واحدة من هذه الأمور «عِلْمٌ» وهي تحتاج تعليم، وعلومها كلها موجودة في القرآن، ويعلمها معلم القرآن من خلال آيات القرآن بمعرفة تفسيرها والعيش في ظلالها، وما إلى ذلك..

ليس ذلك أمرًا نظريًا نخطُّ به ما يملأ الورق، بل هو ما خطَّ به النبي ﷺ ما ملأ الوجود بالتجديد. . . بعث به الموتى إلى الحياة من جديد، وهو الطريق الوحيد لتحقيق ذلك. . .



* النداء الثالث :

يا أهل القرآن: تنبهوا فإن الاقتراب من القرآن إنما هو اقتراب من معلمه ﷺ . . . وإنه اقتراب من الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما يضيف لمقام التشریف حساسية التقريب بل القرب

وخطورة التقصير . . . فلقد قال الله سبحانه وتعالى لأقرب الناس لرسول الله ﷺ مكانا وجسدا ، مبيِّناً لهم حساسية هذا المقام فقال : ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ وقال قبلها مباشرة مبيِّنا خطورة التقصير عند هذا المقام القريب : ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ

بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١﴾ والقاسم المشترك ما بينكم وبينهن
رضي الله عنهن هو الاقتراب من القرآن . . .

ألم تلتفتوا لما أوجب عليكم وعليهن رضي الله
عنهن بهذه الآية بقوله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾، وقد قال النبي ﷺ: «بلغوا
عني ولو آية»^(١)، فكيف وقد جمعت القرآن كله.

فالاقتراب من القرآن شرف لا يدانيه شرف لكنه

(١) رواه البخاري.

حساس وخطير . . .

فَاللّٰهُ اللّٰهُ بتقوى اللّٰه في كل شيء ظاهراً وباطناً . . .
فقلب يحمل القرآن لا يليق به إلا أن يسلمه القرآن
فيكون قلباً سليماً، ومعلماً أميناً، وداعية حكيماً
رحيماً، ومضحياً معطاءً كريماً، أليس قدوته رسول اللّٰه
الذي ما رد سائلاً سألته . . . بل يدركه قبل أن
يسأله، أما عند مدارس القرآن فهو «أجود بالخير من
الريح المرسلة».



* النداء الرابع :

يا أهل القرآن: مَنْ يرفع الشر عن هذه الأمة؟

إن مفهوم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» إنما يعني شركم من لم يتعلم القرآن ولم يعلمه وصدَّ عن سبيله، وشر الخلق مَنْ يحارب القرآن وأهله..

فأنتم بقيامكم بحق القرآن إنما ترفعون الشرَّ عن الأُمَّة، وتقضون على الشر فيها، فمتعلم القرآن ومعلمه عنصر نجاة من الشر أينما كان، في أسرته، وفي حَيِّه، وفي مجتمعه، وفي أُمَّته...

وهو من جملة من عَنَى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

والدعاء إلى الله يقع بأمر شتى، من جملتها: تعليم القرآن، وهو أشرف الجميع، عكسه الكافر المانع لغيره عن الإسلام كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

طيروا يا أهل القرآن بالقرآن في الآفاق . . . وحلقوا بها في جو السماء . . . بجناحي «تعلم القرآن وعلمه» . . .



نسأل الله أن يجعلنا من أهل
القرآن الذين هم أهله وخاصته

الفهرس

- ٧ المقدمة -
- ٩ من درر قوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» -
- ٩ المعنى الأول: سَبَقُ السَّابِقِينَ -
- ١٤ المعنى الثاني: مدح ودعوة -
- ١٧ المعنى الثالث: السعي لارتقاء المقامين -
- ١٨ المعنى الرابع: صبغة القرآن -
- ٢٣ التنادي -
- ٢٥ النداء الأول -
- ٢٨ النداء الثاني -
- ٣١ النداء الثالث -

- ٣٤ النداء الرابع -
- ٣٧ الفهرس -

تم الصف والإخراج
بمؤسسة الجديد النافع للنشر والتوزيع
ت: ٠٠٩٦٥٦٧٦٤٤٤٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ